ديوان ابن زيدون

شرح وضبط وتصنيف كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة ، ٤٦٣ صفحة ، ١٦ ½ سم . × ٢٤ سم . بغلاف من القماش . الثمن ٢٥ قرشاً بورق جيد و ٣٠ قرشاً بورق ممتاز . مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

من حسن حظ هذا الديوان أن يقف على طبعه أديبان مشغوفان بالأدب العربى لا يقدمان الغاية التجارية المحضة على الخدمة الأدبية النزيهة ، ولذلك لم يبخلا عليه بجهد سنة كاملة ضبطاً وتصحيحاً وشرحاً . وقد أمعنا النظر فى الخطّ المغربى فساعدها ذلك على الاهتداء الى أسباب التحريف والتصحيف اللذين وقع فيهما النسّاخون المتعجلون ممن لم يتذوقوا للأدب طعماً فأساءوا الى المأثورات العربية المنقولة اساءات جة بجهودهم العاثرة . وقد جعل الشّارحان مبدأهما استبقاء الأصل مادام مستقيم المعنى مقبولاً ولم يتعرضا الاّ للنصوص المصحّفة والمحرفة والناقصة . فهمااختلفتَ معهما فى مواضع فلا يمكن أن تجحد أنهماقاما بعمل مجيد وأن الاخطاء المطبعية قليلة فى الديوان برغم حجمه الكبير . وأول خاطر يتبادر الى ذهنك عند تصفُّح هذا السفر الضخم هو الرغبة الحارة فى الاتقان والاستيفاء فانّ الناشريْن الفاضلين بذلا مجهوداً كبيراً ليضمنا هذا الكتاب كلّ ما يتعلق بابن زيدون من شعر ونثر ودراسات هامة رغبةً فى المعاونة على تفهمه من كل النواحى الأدبية التاريخية .

وقد صُدِّر للديوان بقصيدة رقيقة لشوقى بك حلل فيها ابن زيدون وفنّه ورحّب بنشر ديوانه ثم أتبعتْ بمقدمة وإلمامة مسهبة بقلم كامل كيلانى تناولت المجهود المبذول فى تصحيح الديوان وأمثلة لما كان فيه من تحريف وأسباب العناية

بشعر ابن زيدون ونظرة المناهج الأدبية المألوفة اليه ، ثم الكلام عن عصره وملوك الطوائف ونشأة ابن زيدون وشاعريته مع مقارنته بالبحترى ، ثم النظر فى أسباب سجنه وحُسّاده وحبّه ولاّدة ومنزلته بوجه الاجمال فى الادب العربى . وأُلحق بالديوان فصلٌ طويلٌ عن رسائل ابن زيدون وأخباره وعن شعر الملكين (المعتضد والمعتمد) مع صفحات مختارة اتماماً للفائدة من نفح الطيب والمعجب وعقد الجمان للعينى وغيرها من المراجع الشهيرة ودراسات الدكتور احمد ضيف والسكندرى وعلاّم سلامة واحمد زكى باشا . فمن كل هذا ترى مظاهر الرغبة فى الاستقصاء والدرس الشامل . ومع هذا فقد أعلن حضرة كاتب المقدمة (كامل كيلانى) أنه سوف يخرج كتاباً خاصاً عن « ابن زيدون — أدبه وعصره » ، كما سيخرج كتاباً آخر عن (ملوك الطوائف) فكأنما قد اعتبر هذا الكشكول المنوّع المفيد — تقدمة وتذييلاً للديوان — بمثابة مذكرة أولية لينتفع بها المتأدبون ، وسوف ينتفعون منها بلا شكّ انتفاعاً وافياً ، وعلى الاخصّ بعد أن قررت وزارة المعاف المصرية تدريس ابن زيدون فى المدارس الثانوية هذا العام ، كما لابدّ من أن يستفيد المتأدبون من الشروح اللغويه والادبية الوفيرة التى ذيلت بها صفحات الديوان .

قال حضرته : « ما كدت أبدأ فى درس ابن زيدون ، شعره ونثره ، وأتقصّى أخباره وأخبار عصره ، حتى رأيت ما راعنى ، وأدهشنى ما رأيتُ . لقد كنت استكثر عليه اسم شاعر اعتيادى فصرت استقلّ له الآن اسم شاعر كبير ، وكنت اكرهه لكلفه بالصنعة التى بغّضت الينا اكثر شعراء ذلك العصر وأفسدت علينا اكثر الأدب العربى ، فاذا بى أحبّ هذا اللون الرائع من الصنعة المعجبة التى تمتزج بالنفس وتهيمن على القلب وتحبّب فيها أشدّ الناس بغضاً لها ، وقد عرف ابن زيدون كيف يتخذ من الصناعة والبديع أدوات للافتنان فى الأداء والتعبير والابداع فى تصوير أروع المعانى الساحرة وأدق الخوالج النفسية ، واذا بها نفس تطرب الى الجمال وتفتنّ فى التعبير عنه ، وطبيعة سمحة صناع لا التواء فيها ولا تكلف ، وقد صدق القائل : (كل طعام يتناوله الصحيح ينقلب الى صحة ، وكل طعام يتناوله المريض ينقلب الى مرض) ، وهكذا كرّهنا المقلدون فى الصنعة والبديع كما حبّب الينا المبدعون كثيراً من ألوان الصنعة والبديع . الحق انّ ابن زيدون ساحر بيانى خلاّب يتخذ من الصنعة وسيلة للروعة والدقة وحسن الاداء ، كما يتخذ المصور

الماهر — من مختلف الألوان والاصباغ — وسيلة للتعبير عن أدقّ وأخفى الاسارير واللمحات . ولا أكتم القارىء أنني من ألدّ أعداء الصنعة اللفظية ، ولكنني من أشدّ انصارها إذا جاءت عن هذه الطريق . ولقد أراد بعض الكتاب أن يعيب على ابن زيدون وأناتول فرانس أنهما من رجال الاساليب ، ونسوا أن الاسلوب العالى هو غاية تنخلع دونها الرقاب ، وان طول المرانة والدرس تخلق من صاحبها الكاتب الحاذق والشاعر اللبق ولكنها أعجز من أن تخلق الكاتب الموهوب والشاعر العبقرى أو تلهمهما الاسلوب العالى الذى يحاول بعض الادباء أن يزرى به ويحقره » .

وقال فى موضع آخر : « لكل شاعر من الفحول طابع خاص يمتاز به شعره : فاذا امتاز المعرى بالفلسفة فى شعره ، وامتاز المتنبى بالحكمة ، وامتاز ابن الرومى بالغوص على المعانى النادرة ، وامتاز ابو العتاهية بالزهديات ، وابو نواس بالخمريات ، والبحترى بحسن النظم ، وأبو تمام بالصناعة ، وابن حمديس بالوصف ، فأى ميزة امتاز بها شعر ابن زيدون ؟ ميزة ابن زيدون التى تكاد تفرده من شعراء العربية هى الفنّ ، فهو شاعر فنى قبل أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً أو غوّاصاً على المعانى أو وصّافاً » .

وأشار حضرة الكاتب الى أنّ امهات المعانى مشتركة بين الناس على اختلاف لغاتهم وأزمانهم وبيئاتهم وأجناسهم ، وانما الاختلاف فى الدقائق والتفاصيل ، وأن الانصاف يقضى عليك بدراسة أى شاعر دراسة مستوعبة قبل المجازفة بالحكم عليه ، وأنك اذا تصدّيتَ للتفضيل بين الشعراء فيجب أن تقارن بين روائعهم وبدائعهم ، أمّا ما يقولونه عفو الخاطر أو فى ساعات الكلال والضعف فلستَ جديراً أن تحكم به على شاعريتهم ، فقد تخرج الشجرة الممتازة — الى ثمارها الشهية الغضة — ثمرة فجة فلا ينقص ذلك من قيمتها .

وكل هذا جميل تنطوى فيه مبادىء أدبية عالية ويمليه روح الانصاف . ولمّا كنا مطالبين بابداء رأينا فى شعر ابن زيدون وديوانه فيحسن بنا أن نقول أولا كلمة عن الديوان ذاته إتباعاً للتمهيد السابق : فأول ما نلاحظه خلو هوامش الديوان وذيله من ترجمة لولاّده محبوبة ابن زيدون حينما ترجمتها واشعارها أوْلَى بعنايتنا من شعر الملكين (المعتضد والمعتمد) لأنها كانت أهم عامل فى انضاج شعر ابن زيدون . وثانياً نرى أن فى نشر هذا الديوان وأمثاله خدمة جليلة للادب العربى لانه مثال من مأثوراته النفيسة . وليس نشر هذا الديوان معناه تقديم مشق جديد

لينسج الشعراء المعاصرون على منواله فالأمر بالعكس ، إذ كل الفائدة تنحصر أو يجب أن تنحصر فى حيازتنا حلقة من حلقات النهضة للشعر العربى تساعدنا على دراسة تطوره وتاريخه ، وأما الشاعر العصرى فله من عصره وثقافة أقوى مادة يستمد منها بيانه وخواطره وأخيلته . وثالثاً لا نبالغ اذا ما وصفنا ابن زيدون بشاعر العواطف فانها تجول وتثب فى معظم شعره ، ولا نوافق على أنه يكاد ينفرد بالتفنن فى الشعر حتى يصح أن يقال إنّ الفنّ ميزة شعره ، لانه اذا كان المراد بالفن « التعبير البالغ المؤثر » فلجميع شعرائنا الممتازين مواقف فنية رائعة وليس ابن زيدون بالذى يختصّ بأكبر قسط من هذه الموهبة . ورابعاً نرى أن الصناعة الفخمة فى شعر ابن زيدون من تأثير بيئته العالية المفتونة بالبهرج والعظمة ، وقد صارت طبيعة عنده فاندمجت بسهولة فى معانيه الشعرية وقلما شذّ عن ذلك . وخامساً نرى فى شعر ابن زيدون نماذج للأدب القديم بتأثير دراسته الطويلة لذلك الأدب حتى كأن الرجل لم يكن يعيش فى صميم أوروبا فكان يرسف أحياناً فى أغلال التقليد وهذا هو نفس الملحوظ على نفس شعرائنا فى العصر الحاضر خصوصاً ونحن فى دور انتقال حتى كأن نفوسنا تتوسّط المعركة المتواصلة بين القديم والحديث . وسادساً لا نوافق على أن امهات المعانى مشتركة بين الناس على اختلاف لغاتهم وأزمانهم وأجناسهم وان الاختلاف يقع فى الدقائق والتفاصيل ، وانما نوافق على أن امهات العواطف تشترك بينهم ، وأما المعانى فقد تختلف جد الاختلاف كما أن الحسن فى بيئة قد يعد قبيحاً فى أخرى وهلمّ جرا ، زدْ على هذا أن الطبيعة فى استحداثٍ مستمر للتخيل الانسانى لا فى الفروع فقط بل فى الامهات أيضاً وأمثلة ذلك عديدة فى نماذج الادب العالمى . وسابعاً نرى أن خير مهذب ومكون لشعر ابن زيدون كان تناوب النعمة والنقمة عليه بل قلْ النقمة المتواصلة المتنوعة من عناء الحكم وعناء الحب وعناء السجن .

فى ديوان ابن زيدون روائع شتّى نبه الى جانب منها الناشران الفاضلان وله شعر سلس طبيعى لا أثر للصناعة فيه مثل قوله فى ولاّدة لما اشتغلت عنه بحب الوزير ابن عبدوس منافسه العنيد :

أكرمْ بولاّدةِ ذُخْراً لمدّخرِ ... لو فرّقتْ بين بيطارٍ وعطّار

قالوا : أبو عامرٍ أضحى يُلِمُّ بها ... قلتُ : الفراشةُ قد تدنو من النّارِ

عيّرتمونا بأنْ قد صار يخلفنا ... فيمن نُحِبُّ ، وما فى ذاكَ من عارِ

أكلُّ شَيْبٍ أصَبْنا من أطايبِهِ ... بعضاً ، وبعضاً صفحنا عنه للفار !

وقوله :

أمَّا مُنَى نفسي فأنتِ جميعُها يا ليتني أصبحتُ بعضَ مُناكِ!
يدنُو بوصلك حين شطَّ مَزَارُهُ وَهْمٌ أكاد به أُقبّل فاكِ!

وقوله :

عليكِ السلامُ سلامُ الوداعِ وداعُ هوىً ماتَ قبل الأَجلْ
وما باختيارٍ تسلَّيْتُ عَنْكِ ولكنّني مُكْرَهٌ لا بَطلْ
ولم يَدْرِ قَلْبِيَ كيف النزوعُ الى أن رأى سيرةً فامتثلْ!

وتتجلَّى صناعة المفتن فى عواطف الشاعر المطبوع بنونيته الجميلة فى ذكرى أيام الوصال (ص ٤) على أروع صورة وفى لاميته « شكوى وألم » (ص ١١٢) وفى رثائه لابن ذكوان (ص ١٥٣) وفى رثاء أم المعتضد (ص ١٨٤) وفى سلوى المضطر (ص ١٩٥) وقد نقلنا قبلا بعض أبياتها ، ولكن الذى ينفحنا بهذه الروائع تتغلب عليه روح القديم بصناعته الجافة أحياناً فيقول لنا (ص ١٥٨) :

لعمر هواكِ ما وَرِيَتْ زنادٌ لِوَصْلٍ منكِ طال لها اقتداحِي

وهذا من التعابير السقيمة العتيقة التى لصقتْ به من انتهاجه مناهجَ القديم ولكنها لحسن الحظ غير كثيرة فى شعره .

* * *

ولا يسعنا أخيراً إلا تهنئة الناشرين الفاضلين ومطبعة الحلبي باظهار هذا التراث الكريم الى عالم الأدب فانه من العوارف التى يجب أن يقدّرها الادباء فى العالم العربى تقديراً عملياً بالاقبال على شرائه ونشره خصوصاً فى البيئات الدراسية .